

# التصوير على الأقداح والأواني والمصابيح

لهج الشعراء بذكر الكؤوس المصوّرة ووصف تصاويرها ؛ فمن ذلك قول عبد الله ابن المعتز :

بدا والصبح تحت الليلى باد  
كطريفٍ أبلق مرّخى الجلال  
بكأس من زجاج فيه أسدٌ  
فرائسهنّ ألباب الرجال<sup>(٨٧)</sup>  
وقال أبو فراس :

أغمامٌ ما يدريك ما أفعالنا\*  
والخيل تحت النّقع كالأشباح  
تطفو وترسب في الدماء كأنّها  
صور الفوارس في كؤوس الراح<sup>(٨٨)</sup>  
وقال أبو الفرج الببغاء في قدح أزرق فيه صور :

فعاظنيها بكراً مشعشعةً  
كأنها في صفائها خلقي  
في أزرق كالهواء يخرقه اللحد  
ظ وإن كان غير منخرق  
ما زلت منه منادماً لعباً  
مذ أسكرتها السقاة لم تُفق  
تختال قبل المزاج في أزرق الفج  
ر وبعد المزاج في الشفق  
تغرق في أبحر المدام فيستند  
قدها شربنا من الغرق<sup>(٨٩)</sup>

وقال ابن حمديس الصقلي :

حمراء تشرب بالأنوف سلافها  
لُطفًا وبالأسماع والأحداق  
بزجاجة صور الفوارس نقشها  
فترى لها حرباً بكف الساق  
وكأنما سفكت صوارمها دماً  
لبست به طوقاً إلى الأعناق  
وكأنّ للكاسات حمر غلائل  
أزرارها درر على الأطواق<sup>(٩٠)</sup>

(\* رواه الصندي في «نصرة النائر» : كيف تناولنا .

وقال أبو العباس الناشي :

ومدامة لا يبتغي من ربه  
في كأسها صور تظنّ لحسنها  
وإذا المزاج أثارها فتقسمت\*  
فكأنهن لبسن ذاك مجاسداً †  
أحدُّ حباه لها لديه مزيدا  
عرباً برزن من الخيام وغيدا  
ذهباً ودرّاً توأمّاً وفريدا  
وجعلمن ذا لنحورهنّ عقوداً (٩١)

وقال ابن نباتة المصري :

سَقِيّاً لَأَيَّامِي التي سلفت  
لا ينزل الدهر عن يدي قدحاً  
ما بين ذاك النعيم والمرح  
كأنني صورة على قدحي (٩٢)

وأشُد صلاح الدين الصفدي لنفسه في «فض الختام عن التورية والاستخدام» (٩٣) :

كؤوس المدام تحبّ الصفا  
ودعها سواذج من نقشها  
فكن لتصاويرها مبطلا  
فأحسنُ ما ذهبت بالطلا

وأكثر بعض الشعراء في وصفهم لتصاوير الكؤوس من ذكر قيصر وكسرى وبابك  
وفرسان الفرس ، مما يشعر بأنهم يصفون صناعة أجمية لا علاقة لها بالعرب ؛ كقول  
أبي نواس :

بنينا على كسرى سماء مدامة  
فلورد في كسرى بن ساسان روحه  
جوانبها محفوفة بنجوم ††  
إذا لاصطفاني دون كل نديم (٩٤)

وقوله :

تزوَّج الخمر من الماء في  
منطقات بتصاوير لا  
طاسات تبر خمرها يفهق  
تسمع للداعي ولا تنطق  
على تماثيل بني بابك  
محتفر ما بينهم خندق

(\*) رواية الصفدي في «نصرة الثائر» : فتتممت .

(†) المجاسد بفتح الأول الثياب المصبوغة بالزعفران وأحدها مجسد بكسر أوله وضمه .

(††) في مجموع شعري يرجح أنه للعصفوري : مكلمة حافظها بنجوم .

كأنهم والحمر من فوقهم كتاب في لجة تفرق<sup>(٩٥)</sup>

وقال السري الرفاء :

وموسومة كاساتها بفوارس من الفرس تطفو في المدام وتفرق  
أقابل منهم كل شاك سلاحه وفي يده سهم إلى مفوق\*  
كأن الحباب المستدير قلادة عليه وتوريد المدامة يلمق†<sup>(٩٦)</sup>

وقال المجد ابن قلاقس :

دارت زجاجتها وفي جنباتها كسرى أنو شروان في إيوانه  
نخلت عن عطفية حلة قهرة وشربتها فعدوت في سلطانه<sup>(٩٧)</sup>

وقال أيضاً :

لو لم يصبها الماء حين توقدت بيد المدير لخت أن تتسعراً  
وبنيتها قصرأ سقيت براحتي كسرى أنو شروان فيه وقيصرا<sup>(٩٨)</sup>

وقال أيضاً :

أنهكت جسمها السنون فلولا عرفها لم يكن بها ذا اعتراف  
فأحى في الكأس جسم كسرى براح تبعث الروح منه في الأعطاف<sup>(٩٩)</sup>

وقال أيضاً :

وزجاجة حياك منها قيصر وكأنما هو في جوانب قصره  
ما ألبسته الراح ثوباً مذهباً إلا وقلده الحباب بدره<sup>(١٠٠)</sup>

وقال نحر الدين عبد الرحمن بن مكاس :

إذا ما أديرت في حشا عسجدية بها كل ذى تاج وقصر تصوروا††

(\* ) الذي في «الشرح الجلي على بيتي الموصلي» : أقبل منهم .

(†) اليلق القباء معرب يلمه .

(††) في بعض الروايات : كل ذى تاج وملك .

- فحسبك حظاً\* في السعادة أن ترى نديمك في الكاسات كسرى وقيصرأ (١٠١)
- وقال جمال الدين بن نباتة المصري :  
والكأس في يد ساقينا مشعشة  
قد أسرجت وغدت اللهم مُجِمةً  
وقال صلاح الدين الصفدي مضمناً :
- ومشمولة قد هام كسرى بكأسها  
وقفت لشوقي من وراء زجاجة  
والأصل قول أحد شعراء الحماسة :
- نظرت كأنني من وراء زجاجة  
فعيناي طوراً تفرقان من البكا  
وقال ابن حبيب :
- قل للذي من راحنا يشتكى  
الظلم في مجلسها لا يرى  
وقال ابن سناء الملك :
- ألا إن شراب المدام هم الناس  
فيا ليت أني مثل كسرى مصور  
وقال أيضاً :
- ما الدر إلا إذا الجبا بـ وإنني بالدر أدرى  
شعري وشعري في السما ء وفي كؤوسك ألف شعري
- وغيرهم فيهم جنون ووسواس  
فليس يزال الدهر في يده كاس (١٠٦)

(\*) في بعض الروايات : فحسبك نبلا في السيادة .

(†) بهرام من ملوك الفرس وهو أيضاً اسم المريح .

مَنْتَ عَلَيَّكَ وَلَا كَمَا      مَنْتَ عَلَى أَشْلَاءِ كَسْرَى  
الْخَلْقِ لَمَّا عَاشَ قَسْدٌ      سَجَدُوا لَهُ طَوْعًا وَقَسْرًا  
وَالْكَلِّ لَمَّا مَاتَ قَسْدٌ      سَجَدُوا لَهُ فِي الْكَأْسِ شُكْرًا (١٠٧)  
وقال أيضاً :

شَرِبْنَا عَلَى هَذَا وَذَلِكَ مَدَامَةٌ      بَدَتْ كَالْعَقِيقِ الرُّطْبِ وَالزَّهَبِ الرَّخَصِ  
أَعِيدَ لَنَا فِي كَأْسِهَا شَخْصٌ قَيْصَرٌ      وَكَسْرَى وَكَادَتْ تَبْعُثُ الرُّوحَ فِي الشَّخْصِ  
قِيَاصِرَةٌ فِي قَصْرِ كَسْرَى وَرَبَّمَا      مَجْنَا فَعَلْنَا بِلِ مَسَاكِينٍ فِي حُصِّ (١٠٨)  
وقال وجيه الدين الذرّوى :

يَفِيضُ عَلَى كَسْرَى غِلَالَةُ قَهْوَةٍ      وَيَسْلُهُ عَمْدًا لِرَاحَةِ سَالِبِ  
وَنَصَّ عَلَى دِينِ الْمَجُوسِ لَهَيْبِهَا      فَشَقَّ الدَّجِيَّ عَنْ صَدْرِهِ مَسِيحَ رَاهِبِ (١٠٩)  
وقال أيضاً :

وَمَصُورٌ نَازَعَتْ فِيهِ عَلَى الْمَدَامَةِ قَيْصَرًا  
وَسَلَبَتْ مِنْهُ مُتَوَجِّجًا حَتَّى رَجَعَتْ مَسُورًا  
وَمَضَيْتُ مِنْ عَقِيَانِهِ      وَلَجِينِهِ أَغْنَى الْوَرَى (١١٠)

وفي هذا ما يشعر بأن هذا النوع من الأقداح المصوّرة ليس بعربيّ الصنّاعة كما قلنا ، بل قد صرّح بعضهم بأنه من الصنّاعة الفارسيّة كما في قول أبي نواس :

تَدَارُ عَلَيْنَا الرَّاحُ فِي عَسْجَدِيَّةٍ      حَبَّتْهَا بِأَنْوَاعِ التَّصَاوِيرِ فَارِسِ  
قَرَارَتِهَا \* كَسْرَى وَفِي جَنْبَاتِهَا      مَهًا تَدْرِيهَا بِالْقَسَى الْفَوَارِسِ  
فَلَارَاحُ مَا زُرَّتْ عَلَيْهِ جِيُوبُهَا      وَلِلْمَاءِ مَا دَارَتْ عَلَيْهِ الْقَلَانِسِ (١١١)

وقول أبي تمام غالب بن رباح الحجّام الأندلسيّ :

وَكَأْسٌ تَرَى كَسْرَى بِهَا فِي قَرَارَةٍ      غَرِيبًا وَلَكِنْ فِي خَلِيْجٍ مِنَ الْخَمْرِ

(\*) قال الزجاجيّ في «أماليه» قوله قرارتها كسرى نصبه على الظرف ، يريد أنه كان في قرارة الكأس وهي أرضها صورة كسرى .

وما صورته فارس عبثاً به      ولكنهم جاءوا بأخفى من السحر  
أشاروا لما كانوا له في حياته      فنومى إليه بالسجود ولا ندرى<sup>(١١٢)</sup>

ولكنه ليس بالدليل القاطع على عدم اشتغال العرب بهذا النوع لجواز أن يكونوا  
احتذوا مثال الفرس في تصاويرهم عند اقتباس هذه الصناعة عنهم<sup>(١١٣)</sup> ، وهو كثير الوقوع  
في انتقال الصناعات من قوم إلى قوم . أما في غير هذا النوع فمن الثابت أنهم زاولوا صنع  
الإفداح المصوّرة والمصاييح وسائر الأواني الزجاجية كانت وغير زجاجية بشهادة آثارهم الباقية  
منها وأسمائهم المنقوشة عليها .

فمن ذلك مجموعة من المصاييح الزجاجية المزخرفة محفوظة بدار الآثار العربية بالقاهرة ،  
مما صنعه العرب في العصور الإسلامية<sup>(١١٤)</sup> ، وعلى بعضها أسماء صناعاتها<sup>(١١٥)</sup> ، وفيها ما هو  
مصوّر بأنواع النبات والطيور . ويندر وجود مثلها في دور الآثار ، نذكر منها مشكاة عليها  
اسم السلطان محمد بن قلاوون ، وبين زخارفها كثير من صور الطيور المتقنة الرسم ،  
ومشكاة بديعة الزخرفة والتذهيب ، عليها صور طيور ومكتوب عليها :

« مما عمل برسم المقر العالى السيفى الملك الناصرى »<sup>(١١٦)</sup> .

وقطعة من كرة تعلق على المشكاة عليها صور طيور أيضاً<sup>(١١٧)</sup> ، وقطعة جام من  
غضار عليها عصابة من الكتابة الكوفية وبأسفلها صورة تيسين يتناطحان<sup>(١١٨)</sup> .

وعثروا أخيراً في أطلال الفسطاط على قطع من الخزف المصقول البراق الملون بالألوان  
الزاهية المصوّر بصور الإنسان والحيوان وغيرها<sup>(١١٩)</sup> . وهى بقايا من أوانٍ وأباريق عربية  
الصنعة كتبت عليها أسماء صناعاتها كالغيبى والمصرى والشامى وغزال والهرمزى  
وأبي العز<sup>(١٢٠)</sup> ؛ بل قد اكتشفوا الأفران التى كانت تصنع فيها هذه الأواني<sup>(١٢١)</sup> ، فلم يبقوا  
للسك مجالاً فى عربيتها<sup>(١٢٢)</sup> .

ومن الأواني العربية المصورة المحفوظة بدار الآثار ققم للعطر من الصُفر ،

مُكفّت\* (١٢٣) بالفضة ، مكتوب عليه « يفاعل الخير » ، وعليه صورة جماعة يضربون على آلات الطرب (١٢٤) ، وإناء نقش عليه اسم « محمد بن فضل الله » أحد بني فضل الله العمريّ المشهورين بكتابة الإنشاء بمصر ، وطرّزت حافته بكتابة فيها ألقابه يتخللها صور طيور (١٢٥) ، وإناء آخر عليه صورة فارس (١٢٦) . وفيها غير ذلك من الأواني كالطاسات والصواني المصورة بأشكال الحيوان ، والتنانير المنقوشة بصور الفرسان .

وذكر الخالديّان في كتاب « الهدايا والتحف » ، هديةً أهداها ملك الهند للخليفة المأمون ، فقابلها بهديةً مثلها أرسل بها إلى هذا الملك ، وهي كتاب اسمه « ديوان الأدب وبستان نوادر العقول » ، ومعه تحف كثيرة ، منها مائدة جزع ثمينة وجام زجاج فرعوني فتحته شبر ، وفي وسطه صورة أسد ، وأمامه رجل قد جلس على ركبتيه ، وفوق السهم في القوس نحو الأسد (١٢٧) ، وكانت المائدة والجام مما أخذ من خزائن بني أمية \* (١٢٨) .

(\*) يريدون بالتكفيت تنزيل الذهب والفضة في النحاس ونحوه كالنظيم في الحشب . ويقال له الكفت أيضاً ولصانعه الكفتيّ ، ومنه قول بعضهم :

بي كفتيّ سباني حسنه      لا أرى من حبه لى مخرجا  
مد تبرأ في حديد فحكي      قرأ طرّز بالبرق الدجى

وقول آخر :

لله كفتيّ أطاع صبايبي      فيه الفؤاد وخالف اللواما  
مدّ القربط على الحديد نغخته      قرأ يطرّز بالبروق غماما

وكلها ألقاظ مولدة ، وكان لهذه الصناعة رواج بمصر ولأهلها اشتغال بها على ما في « خطط المقرئى » ، ثم انقطعت منها ، وبقيت منها بقية بالشام إلى اليوم .

(\*) ذكر شيخ الربوة هذه المائدة وهذا الجام في « نجبة الدهر » ، وقال إنهما وجدوا في خزائن مروان بن محمد ، ولم يتعرض لهدية المأمون . وليحقق إن كان هذا الجام من الصناعة العربية أم من الصناعات القديمة ، وليحقق أيضاً إن كان القصد بالفرعونيّ أنه من الآثار الغنيمة أم هو نوع من الزجاج عرف بذلك .